٥٦ عَجِبَ رَبُّنَا مِنْ رَجُلَيْنِ

عن ابن مسعود عن رسول الله ﷺ قال :

(عَجِبَ رَبُّنَا مِنْ رَجُلَيْنِ . رَجُلٍ ثَارَ عَنْ وِطَائِهِ وَلِحَافِهِ مِنْ بَيْنِ أَهْلِهِ وَحِبِّهِ إِلَى صَلاَتِهِ

فَيَقُولُ اللهُ جَلَّ وَعَلاَ : انْظُرُوا إِلَى عَبْدِى ، ثَارَ عَنْ فِرَاشِهِ وَوِطَائِهِ ، مِنْ بَيْنِ حِبِّهِ وَأَهْلِهِ إِلَى صَلاَتِهِ ،

رَغْبَةً فِيمَا عِنْدِى ، وَشَفَقَةً مِمَّا عِنْدِى) (١)

هذا حديث رب العزة سبحانه عن حال " عباد الرحمن " مع ربهم ، فيقول سبحانه : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا ﴿٦٤﴾ ﴾ [الفرقان]

فقيام الليل بمثابة الماء للأرض العَطْشى ، فهو رِىُّ القلوب الظامئة إلى التحقُّق بحب الله عز وجل ، والمثول بين يديه سبحانه ، والوقوف على باب رحمته وعَفْوه ، عسى أنْ يقبل ، عسى أنْ يرضى سبحانه .

فركعتان فى جوف الليل ، يعبد فيهما اللهَ بـ : إخلاص ، وحب ،

---

(١) أخـرجه الإمام أحمد فى مسنده (١ / ٤٦٦) ، وابن حبان فى صحيحه (٦٤٣ ـ موارد الظمآن) من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ . وعزاه الهيثمى فى مجمع الزوائد (٢ / ٢٥٥) لأحمد وأبى يعلى والطبرانى فى المعجم الكبير ، وقال : إسناده حسن .

ويقين ورغبة فى لقائه ، وشوق لمناجاته ، يجعلان العبد مُحباً للخلو بحبيبه سبحانه يناديه ويدعوه ويناجيه (١) .

إن قيام الليل دليلٌ على مدى يقين العبد فى وعد الله سبحانه ووعيده ، فما الذى يجعل إنساناً ينفض لحافه ، ويترك فراشه الدافىء الوثير ، ويعزف عن زوجه ، ويترك ملذاته وشهواته ، ويقاوم النوم ، لكي يقف يصلي ركعات فى ظلمة الليل وبَرْد الشتاء ، ما الذى يدعوه للوقوف طويلاً ، والركوع طويلاً ، والسجود حتى تتورم قدماه وتتفطر من كثرة الوقوف وطوله ؟

هذا دليل واضح على أن قلبه قد ملأه الإيمان ، وأن سراج الإيمان يُضيء فى قلبه ، وهذا دليل على يقينه وتقواه وصلاحه ، يقينه بأن الله حيٌّ سميعٌ بصيرٌ ، نام كل الناس ، وهجعت الأبدان ، وغارت النجوم ، ووقف " عباد الرحمن " يناجونه .

وانظر إلى ما روته أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - عن ليلة أحياها رسول الله ﷺ من لياليه ، وكيف أن المحبين لله الخاشعين له لهم شأن آخر غير شأن كل الناس .

قالت عائشة رضى الله عنها : " افتقدتُ النبى ﷺ ذات ليلة ، فظننتُ

(١) أخرج ابن المبارك فى الزهد (ص ٤٠٦) (حديث ١٢٨٩) من حديث حسان بن عطية مرسلاً بلاغاً أن رسول الله ﷺ قال : " الركعتان يركعهما العبد فى جوف الليل خير له من الدنيا وما فيها ، ولولا أن أشق على أمتى لفرضتهما عليهم " وعزاه الحافظ العراقى لآدم بن أبى إياس فى الثواب ، ومحمد بن نصر المروزى فى كتاب " قيام الليل " من رواية حسان بن عطية مرسلاً .

أنه ذهب إلى بعض نسائه ، فتحسستُ ثم رجعتُ ، فإذا هو راكع أو ساجد يقول : سبحانك وبحمدك ، لا إله إلا أنت . فقلت : بأبى أنت وأمى ، إنكَ لَفِى شأن ، وإنى لفى شأن آخر " (١)

ولذلك يعجب الله عز وجل من هذا العبد الذى يترك فراشه وامرأته ونومه ليقوم من الليل ، بل إنه سبحانه يفرح به ويستبشر ، لذلك يقول النبى ﷺ عن رب العزة سبحانه فى الحديث الذى معنا :

« عَجِب ربنا من رجلين : رجل ثار عن وِطَائه (٢) ولحافه من بين أهله وحِبِّه إلى صلاته ، فيقول الله جل وعلا : انظروا إلى عبدى ثارَ عن فراشه ووِطَائه من بين حِبِّه وأهله إلى صلاته ، رغبةً فيما عندى ، وشفقةً مما عندى » .

بل إن الله عز وجل يُقَرِّر لنا أن قيام الليل وإحياءه هو نتيجةٌ مباشرة للإيمان ، وصفة من صفات المؤمنين الصادقين ، فيقول عز وجل :

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ۞ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ۞ ﴾ [السجدة]

فعلامة المؤمنين حقّاً بالله وآياته ، والمذعنين لأمره وحكمه فى كل شئون حياتهم أنهم إذا ذُكِرَتْ أمامهم وعلى أسماعهم آياتُ الله خرُّوا سُجَّداً ،

---

(١) أخرجه النسائى فى سننه (٢ / ٧٢) كتاب : عشرة النساء من حديث عائشة رضى الله عنها .

(٢) الوطاء خلاف الغطاء . واللحاف : كل ما تغطيتَ به فقد التحفتَ به .

تعبيراً عن الخضوع والخشوع الواجبين للمتصف وحده بصفات الكمال .

ولا يتأتى هذا إلا من صاحب قلب امتلأ بحب الله والإيمان والخضوع والذلّ لله وحده ، فإذا بهم لا يستكبرون على الله عَزَّ وجل ، بل يكونون وكأنَّ على رؤوسهم الطير ، ويتعدى هذا بلى تجافى الجنوب والظهور والأبدان كلها عن مضاجعها ، وعن هجوعها ورقودها وخلودها إلى النوم ، فإذا بهم يسهرون ليلهم ويُطيلون الوقوف بين يدى الله طلباً لما عند الله ، وخوفاً من عقابه .

فساعةَ يبيت الواحد منهم فى الليل يحاسب نفسه ، ماذا قدَّم من عمل فى نهاره ، ويتذكَّر نِعَم الله التى تجلَّتْ عليه فى ذلك اليوم ، وهى نِعَم ليست ذاتية فيه ، ولكنها موهوبة من ربه ، فيشكر الله عليها ، ويبيت لربه ساجداً قائماً .

قال تعالى : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾ [الزمر]

والقنوت هو المداومة على الشىء ، وقد حَثَّ القرآنُ الكريم على ديمومة طاعة الله ، ولزوم الخشوع والخضوع .

وفى آية أخرى يقول سبحانه : ﴿ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الذاريات]

هؤلاء هم المتقون المحسنون ، الذين قال الحق سبحانه عنهم : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الذاريات]

فأنت إذا زدتَ على ما افترض الله من جنس ما فرضه عليك ، تكون قد دخلْتَ مع الله فى مقام الإحسان ؛ لأنك حين جربْتَ أداء الفرائض ، وذُقْتَ حلاوتها ، وعلمتَ ما أفاضه عليك من معين التقوى ، ومن رصيد قوله : ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ ﴾ [البقرة]

إذا استشعرتَ هذا كله علمتَ أن الله يستحقُّ منك أكثر مما كلَّفك به ، فالإنسانُ يصلى العشاء من أول الليل وينام حتى الفجر ، هذا هو التكليف ، لكن أنْ تحلوَ العبادة للمؤمن ، ويزداد الإيمانُ فى قلبه ، ويملك عليه جوارحه، ويأنس العبدُ بالقرب من الله ، فالحقُّ سبحانه لا يردُّ مثل هذا العبد، بل إنه يستقبله ويُدخِله فى مقام الإحسان .

والإحسان له وجهان :

الأول : أن يعبدَ المؤمنُ اللهَ كأنه يراه ، فيُحسِن أداء كل تكليف يُكلَّف به ، كأنه يرى الله ، فإنْ لم يكُنْ يراه فإنه يحسُّ أنه سبحانه يراه .

الثانى : أنْ يزيد المؤمنُ فى أداء هذه التكاليف فوق ما فرض الله ، وهى النوافل ، وبذلك لا يكتفى المؤمنُ بتصديق الأحكام التى نزلتْ ، بل يزيد من جنس ما فرض اللهُ عليه .

فالمحسن هو مَنْ عشق تكليف الله ، وعرف منزلة القرب منه ، فوجد

الله قد كلَّفه دون ما يستحق سبحانه منا ، فزاد من العمل الذى يزيده قرباً من الله .

والحق يقول فى الحديث : ((ما تقرب إلىَّ عبدى بشىء أحب إلىَّ مما افترضتُه عليه ، وما يزال عبدى يتقرَّب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببتُه كنت سمعه الذى يسمعُ به ، وبصره الذى يبصرُ به ، ويده التى يبطشُ بها ، ورِجلَه التى يمشى بها ، إنْ سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه)) [1]

والحق يأمر نبيه ﷺ ، فيقول : ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ ﴾ [الإسراء]

وهذه خصوصية لرسول الله ، وزيادة على ما فرض على أمته ، أنْ يتهجد لله فى الليل ؛ لأن الله يقول له ﷺ : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ ﴾ [المزمل]

وكأن التهجد ليلاً والوقوفَ بين يدى الله فى هذا الوقت سيعطى رسول الله ﷺ القوة والطاقة اللازمة للقيام بهذه المسئولية الملقاة على عاتقه ، ألا وهى مسئولية حَمْل المنهج وتبليغه للناس .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٦ / ٢٥٦) من حديث عائشة ، وكذا البخارى فى صحيحه (٦٥٠٢) من حديث أبى هريرة . قال الخطابى : ((هذه أمثال ، والمعنى توفيق الله لعبده فى الأعمال التى يباشرها بهذه الأعضاء ، وتيسير المحبة له فيها بأن يحفظ جوارحه عليه ويعصمه عن مواقعة ما يكره الله من الإصغاء إلى اللهو بسمعه ، ومن النظر إلى ما نهى الله عنه ببصره ، ومن البطش فيما لا يحل له بيده ، ومن السعى إلى الباطل برجله)) ذكره ابن حجر فى فتح البارى (١١ / ٣٤٤) .

ويقول الحق : ﴿ إِن نَاشِئَةَ [1] ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا .. ﴿٦﴾ ﴾ [المزمل]

ففي الوقت الذى ينام فيه النفس ، ويخلدون إلى الراحة ، وتتثاقل رؤوسهم عن العبادة ، يقوم " عباد الرحمن " بين يدى ربهم مناجين متضرعين ، فتتنزّل عليهم من الله الرحمات والفيوضات ، فمَنْ قام من الناس في هذا الوقت ، واقتدى برسول الله ﷺ ، فله نصيب من هذه الرحمات ، وحَظٌّ من هذه الفيوضات ، ومَنْ تثاقلت رأسه عن القيام فلا حَظَّ له .

إذن : فَفي قيام الليل قوة إيمانية ، وطاقة روحية ، ولما كانت مهمة الرسول فوق مهمة الخَلْق كان حظُّه من قيام الليل أزيد من حظهم ، فأعباء الرسول كثيرة ، والعِبء الثقيل يحتاج الاتصالَ بالحق الأحد القيوم ، حتى يستعين بلقاء ربه على قضاء مصالحه .

ومن العجيب أنْ ينصرف المسلمون عن هذه السنة ، ويتغافلون عنها ، فإذا حَزَبهم أمر لا يُهرعون إلى الصلاة ، بل يتعللون ، يقول أحدهم : أنا مشغول وهل شغل الدنيا مبرر للتهاون فى هذه الفريضة ؟ ومَنْ يدريك لعلك بالصلاة تُفتَح لك الأبواب ، وتقْضِى فى ساعة مَا لا تقضيه فى عدة أيام .

ونقول لهؤلاء الذين يتهاونون فى الصلاة وتشغلهم الدنيا عنها ، فإنْ صلَّوْا صلوا قضاءً ، فإنْ سألتهم قالوا : المشاغل كثيرة ، والوقت لا يكفى ، فهل إذا أراد أحدهم الذهابَ لقضاء حاجته ، هل سيجد وقتاً لهذا ؟ إنه لا شكَّ واجدٌ الوقت لمثل هذا الأمر ، حتى وإنْ تكالبتْ عليه مشاغل الدنيا ، فلماذا

---

(١) ناشئة الليل : ساعاته . قال الزجاج : ناشئة الليل ساعات الليل كلها ، ما نشأ منه ـ أى : مُا حدث ـ فهو ناشئة . قال أبو منصور : ناشئة الليل قيام الليل . [لسان العرب - مادة . نشأ] .

الصلاة هى التى لا تجد لها وقتاً .

أمـــا الـــتهجُّد ، وهو قيام الليل ، فهو فَرْض على رسول الله ﷺ دون غيره ، فإنه بالنسبة لسائر الأمة تطوُّع .

فهـــؤلاء الـــذين يبيتون لربهم سُجّداً وقياماً ، يتوجهون لربهم وحده ، ويقومـــون لـــه وحده ، ويسجدون له وحده ، هؤلاء قوم مشغولون عن النوم المـــريح اللذيذ بما هو أرْوَح منه وأمتَعُ ، مشغولون بالتوجُّه إلى ربهم ، ينام الـــناس ، وهم قائمون ساجدون ، ويخْلد الناس إلى الأرض ، وهم يتطلعون إلى عرش الرحمن ، ذى الجلال والإكرام .

يقـــول الحق سبحانه : ﴿ ۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ [آل عمران]

ويقول الحق سبحانه مخاطباً نبيه ﷺ :

﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [طه]

والتسبيح هو : التنزيه لله تعالى ، وهو صفة لله قبل أن يخلقَ من يسبحه وينـــزهه ، فالتـــسبيح ثابـــت لله ، ولو لم يُوجد المُنَـــزّه ، فلما خلق الله للكونَ سَـــبّحت لـــه الـــسماواتُ والأرضُ وما فيهنّ لله ، فإذا كان التسبيح ثابتاً لله قبل أن يوجد المسبّح ، ثم سبح لله أول خَلْقه ، ولا يزالون يُسبّحون ، فأنت أيضاً سبّح باسم ربك. أى : نزّهه سبحانه ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً عما تراه من المخلوقات .

والتسبيح والتنزيه يعنى أن المقياس الذى يضبط العالم ليس كمقياس العالم إنما أصلحُ وأقوى ، وهذا فى صالحك أنت ، فساعةَ أن تسبح الله اذكر أن التسبيح نعمة ، فاحمد اللهَ على أنه لا شىءَ مثله ، سبِّح تسبيحاً مصحوباً بحمد ربك ؛ لأن تنزيهه إنما يعود بالخير على من خلق ، وهذه نعمة تستحق أن تحمد اللهَ عليها .

ومثال ذلك - ولله المثل الأعلى - رب الأسرة ، فهذا الرجل الكبير العاقل صاحب كلمة الحق والعدل بين أفرادها ، وصاحب المهابة بينهم تراهم جميعاً يحمدون الله على وجوده بينهم ؛ لأنه يحفظ توازن الأسرة ، وينظم العلاقات بين أفرادها ، ألم نَقُل فى الأمثال : اللى ملوش كبير يشترى له كبير ؟

حتى وإن كان هذا الكبير متعالياً ؛ لأن تعاليه لصالح أفراد أسرته ، حيث سيلزم كل واحد منهم حدوده ، لذلك كان من أسماء الله تعالى : المتعال المتكبر ، وهذه الصفة وإن كانت ممقوتة بين البشر لأنها بلا رصيد ، فهى محبوبة لله تعالى ؛ لأنها تجعل الجميع دونه سبحانه عبداً له ، فتكبُّره سبحانه وتعاليه بحق .

إذن : لا يحفظ التوازن فى الكون إلا قوةٌ مغايرة للخلق .

والحق سبحانه يريد تسبيحنا تسبيحاً دائماً متوالياً ، كما أن نِعَمَ الله عليك متوالية لا تنتهى ، فكل حركة من حركاتك نعمة ، النوم نعمة ، والاستيقاظ نعمة ، والأكل نعمة ، والشرب نعمة ، والبصر ، والسمع ، كل حركة من حركات الأحداث نعمة تستحق الحمد ، وكل نعمة من هذه ينطوى تحتها نِعَم .

لذلك ؛ فالحق سبحانه يعطينا زمن التسبيح ، فيعيشه فى كل وقت :

﴿ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [طه]

وآناء : جمع إنْى ، وهو الجزء من الزمن ، وهذا الجزء يترقى حسب تنبهك لتسبيح التحميد ، فمعنى التسبيح آناء الليل أى أجزاء الليل كله ، فهل يعنى هذا أن يظل الإنسان لا عمل له إلا التسبيح ؟ فيمكن أن تجزىء الليل إلى ساعات ، فتسبح كل ثانية ، وهكذا حسب مقامات المسبح الحاق وأحواله.

فهناك من عباد الله من لا يفتر عن تسبيحه لحظة واحدة ، فتراه يسبح الله فى كل حركة من حركاته ؛ لأنه يعلم أنه لا يؤديها بذاته ، بدليل أنها قد تُسلَب منه فى أى وقت .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ .. ﴿١٣٠﴾ ﴾ [طه] ليستوعب الزمن

كله ليله ونهاره ، والمقامات والأحوال كلها ؛ لذلك يقول بعض العارفين فى نصائحه التى تضمن سلامة حركة الحياة .

(**اجعل مراقبتك لمن لا تخلو عن نظره إليك**) فهذا الذى يستحق المراقبة ، وعلى المرء أن يتنبه لهذه المسألة ، فلا تكن مراقبته لمن يغفل عنه ، أو ينصرف ، أو ينام عنه .

(**واجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمة عنك**) فإذا شربت كوب ماء ، فقل : الحمد لله أن أوراك ، فساعة تشعر بنشاطها فى نفسك قل : الحمد لله . وساعة أن تخرجها عرقاً أو بولاً قل : الحمد لله ، وهكذا تكون موالاة حمد الله ، والمدوامة على شكره .

(**واجعــل طاعتك لمن لا تستغنى عنه**) فطالما أنك لا تستغنى عنه ، فهو الأولى بطاعتك .

(**واجعــل خــضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه**) وإلاَّ ، فأين يمكنك أن تذهب ؟

لكن ، لماذا أطلق زمن التسبيح بالليل ، فقال: ﴿ ءَانَآيِ ٱلَّيۡلِ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [طه] . وحدده فى النهار ، فقال : ﴿ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [طه] ؟

قالوا : لأن النهار عادة يكون محلاً للعمل والسعى ، فربما شغلك التسبيح عــن عملــك ، وربنا يأمرنا أن نضرب فى الأرض ونسهم فى حركة الحياة ، والعمل يعين على التسبيح ويعين على الطاعة ويعينك أن تلبس : الله أكبر .

ألا تقرأ قول الله عز وجل فى سورة الجمعة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الجمعة]

ذلــك لأن حركة الحياة هى التى تعينك على أداء فرض ربك عليك ، فأنــت مثلاً تحتاج فى الصلاة إلى ستر العورة ، فانظر إلى هذا الثواب الذى تــستر بــه عــورتك ؛ كم يدٌ ساهمت فيه ؟ وكم حركة من حركات الحياة تضافرت فى إخراجه على هذه الصورة ؟

أما فى الليل فأنت مستريح ، يمكنك التفرغ فيه لتسبيح الله فى أى وقت من أوقاته .

ويلفتنا قوله تعالى : ﴿ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [طه]

فأىُّ طلوع ؟ وأىُّ غروب ؟ وأىُّ ليل ؟ وأىُّ نهار ؟ أهى لمصر ، أم للجزائر ، أم للهند ، أم لليابان ؟ إنها ظواهر متعددة وممتدة بامتداد الزمان والمكان لا تنتهى فالشمس فى كل أوقاتها طالعة غاربة ، ففى هذا إشارة إلى أن ذكر الله وتسبيح الله دائم لا ينقطع .

ثم يذكر سبحانه الغاية من التسبيح ، فيقول ﴿ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [طه]

ونلحظ أن الحق سبحانه يحث على العمل بالنفعية ، فلم يقل : لعلّى أرضى ، قال : لعلك أنت ترضى ، فكأن المسألة عائدة عليك ولمصلحتك .

والرضا : أن تصلى فيما تحب إلى ماتؤمل ، والإنسان لا يرضى إلا إذا بلغ ما يريد ، وحقق ما يرجو ، كما تقول لصاحبك : أأنت سعيد الآن ؟

يقول : يعنى ، يقصد أنه لم يصل بعد إلى حَدِّ الرضا ، فإن تحقق له ما يريد يقول لك : سعيد والحمد لله . فإنْ أحسنت إليه إحساناً يفوقُ ما يتوقعه منك يأخذك بالأحضان ، ويقول : ربنا يُطيل عمرك ، جزاك الله خيراً .

إذن : رضا الإنسان له مراحل ؛ لذلك الحق سبحانه يقول فى الحديث القدسى كما روى النبى ﷺ : ((إن الله يتجلى على خَلقه فى الجنة : يا عبادى هل رضيتم ؟ فيقولون : وكيف لا نرضى وقد أعطينا مالم تعط أحداً من العالمين ، قال : أعطيكم أفضل من ذلك ، قالوا : يا رب ، وهل يوجد أفضل من ذلك ؟ قال : نعم أُحلُّ عليكم رضوانى ، فلا أسخط بعده عليكم أبداً)) .

وهكـذا يكون الرضا فى أعلى مستوياته ، الغاية من التسبيح إذن الذى كلفـك ربك به أن ترضى أنت ، وأن يعود عليك بالنفع ، وإلا فالحقُ سبحانه مُسبَّح قبل أن يخلق ، أنت مسبح قبل أن يخلق الكون كله ، ولا يزيد تسبيحك فى ملكه تعالى شيئاً ، ويتم لك هذا الرضا حين ترضى الله فيرضيك .

لذلك حكم الحق سبحانه بأنه لا يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون، فقـال تعالـى عن القانتين آناء الليل وساعاته ساجدين وقائمين ، فقال الحق سـبحانه وتعالى : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾ [الزمر]

فالـذى هو قانتٌ آناءَ الليل يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه علم العلم الحقيقـى ، فالقـنوت بالليـل فيه مسائل كثيرة . أولاً : أنه أبعدُ عن الرياء والسمعة . ثانياً : أن كل جوارحه تفرغتْ للقاء ربه .

فالعـين مـثلاً فى ظلمة الليل تستريح من المرائى التى تشغل الإنسان وتأخذ انتباهه ، لأن كل مرأىً يأخذ جزءاً من خواطرك ، فهذا ذهب ، وهذا جاء ، وهذا قال .

أمـا الليـل فسكونٌ لا انشغالَ فيه ، فالجوارح خالصةٌ لوجه الله لا تشغلها المرائـى والأصوات ، وهذا الجو يوفر لك وقفة حقيقية وخاشعة بين يدى الله وفى القنوت تترك النوم وتحرم نفسك راحتها ؛ لتقوم بين يدى ربك ساجداً أو قائماً .

وبالقنوت يدخل العبد فى الربانية التى تقول للشيء كن فيكون ، وهذه من الفيوضات لمَنْ كان لله ساجداً أو قائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ،

يعبده بلا رياء أو سمعة ، ويمنع نفسه النوم والراحة ، لأنه أنس بربه واستراح فى قُربه .

ويُحدثنا الحق سبحانه عن محمد ﷺ وصَحبه ، فقال تعالى : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ ﴾ [الفتح]

وقد سُئل عمر رضى الله عنه عن المتقين ، فقال : ((الواحد منهم يزيدك النظر إليه قرباً من الله)) . وكأنه يشرح لنا قوله تعالى عن أصحاب رسول الله : ﴿ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾ .

فساعة ترى المتقى لله تُسَرُّ وتفرح به ، ولا تعرف مصدر هذا السرور ، إلا حين يقال لك : إنه ملتزم بتقوى الله ، وهذا السرور يلفتك إلى أن تقلده ، لأن رؤياه تُذكرك بالخشوع والخضوع والسكينة ورقَّة السَّمْت وانبساط السريرة .

فساعة تراهم ترى أن الملامح توضح ما فى الأعماق من إيمان ، أولئك الذين ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴾ [مريم] فعند سماعهم آيات الرحمن لا يسجدون فقط بل يخرون سُجداً ، أى: يسقطون بوجوههم سريعاً إلى الأرض ، وهذا انفعال قَسْرى طبيعى لا دَخْلَ للعقل فيه ولا للتفكير .

فالساجد يستطيع أن يسجد بهدوء ونظام ، أما الذى يخر فلا يفكر فى ذلك بل يخر تلقائياً ويضيف إليه نزوعاً داخلياً ، فتفيض أعينهم بالبكاء دموعاً.

فالقرآن يؤثر فى حواسّ الإنسان وأعضائه ، خاصة فى جوف الليل ، حينها ﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الزمر] .

فالذى خلق التكوين الإنسانى هو الذى يتكلم ، والخالق سبحانه حينما يتكلم وحينما تعى عنه وتفهم فإنه سبحانه لا يخاطب عقلك فقط ، بل يخاطب كل ذرة من ذرات تكوينك ، لذلك تخر الأعضاء ساجدة ، وتدمع العيون ، وتقشعر الجلود ، وتلين القلوب ، كيف لا والمتكلم هو الله ؟

وهذه صفة العبد الذى يخشى ربه ويراقبه ويعمل لنظره إليه حساباً ، لأنه دائماً يعرض سلوكه على ربه ، فإنْ رأى فيه مخالفة عاد إلى كلام الله وتذكّر وعيده فتحدث عنده قشعريرة فى جلده من خشية ربه ، وهى أنْ يجفّ جلده وتحدث رعشة فى البدن من خوف العذاب ، ومن خوف غضب الله ، ثم يعود فيتذكر رحمة ربه التى سبقتْ غضبه ، وعفوه الذى سبق عقوبته ، فيعود إلى حالته الأولى .

﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الزمر] ، فالجلود تقشعر من هول الوعيد بالنار ، ومن مجرد قراءة ما ذكره القرآن عنها .. وبعد ذلك تأتى الرحمة ، وفى هذه الحالة لا تلين الجلود فقط ، ولكن لا بدَّ أن تلينَ القلوبُ لأنها هى التى تعطى اللمحة الإيمانية لكل جوارح الجسد .

ورسول الله ﷺ يقول : ((إن فى الجسد مُضغة إذا صلحتْ صَلُحَ الجسد كله ، وإذا فسدتْ فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب)) .

فالقلـــب هو منبع اليقين ومصبّ الإيمان ، وهو موضع الرقة والرحمة والعطف ، وإذا ما جعلنا القلب أكثر ذكراً لله فإنه يمتلئ رحمةً وعطفاً ، وإذا كـــان غامـــراً باليقين والإيمان ، فكلُّ جارحة فى الإنسان تكون فيها خميرةُ إيمان .

أمـــا إذا خرج الإيمان من القلب خرجت منه الرحمة ، وخرج منه كل إيمـــان الجوارح .. فلمحة الإيمان التى فى اليد تخرج فتمتد اليد إلى السرقة والحرام .. ولمحة الإيمان التى فى العين تخرج فتنظر العين إلى كلِّ ما حرَّم الله .. ولمحة الإيمان التى فى القدم تخرج فلا تمشى القدم إلى المسجد أبداً ، ولكنها تمشى إلى الخمرة وإلى السرقة ، لأنه كما قلنا : القلب مخزن الإيمان فى الجسم .

ومدخلـــنا لإصلاح هذا القلب هو التوجه إلى الله بالتضرع والخشوع ، وأن نكـــون حقـــاً من تلك الأمة التى ذكرها الحق سبحانه فى قرآنه ، فقال :

﴿ ۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ [آل عمران]

فالصلاة عنوان الخضوع والسجود أقوى سمات الخضوع فى الصلاة ، وما داموا يُصلُّون فلا بُدَّ أنهم يتلون آيات الله آناءَ الليل وساعاته وهم يؤدون الصلاة بخشوع كامل ، ونعرف أن من حُسْن العبادة فى الإسلام ومن السنن المعروفة قراءة القرآن ليلاً وصلاة التهجد ، وهذه من مدارج العملية الإيمانية

التى يدخل بها العبدُ إلى مقام الإحسان .

ودخـــوله لمقـــام الإحسان يجعله يزيد عما افترضه الله عليه ، فهو لا يصلى فقط صلاة العتمة وهى العشاء لكنه يكرر الصلاة ويقطع ساعات الليل فى عبادة يجد حلاوتها فى قلبه ، فينير ليله بالقرب من الله .

obeikan.com